الأمـة واللغـة الأم أيُّهما يصنع الآخر؟

الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

الثلاثاء 6 محرم 1434هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2012م

يشير هذا العنوان إلى ثنائية متلازمة، وإلى قضيّة محكمة بين الأمة العربيّة ولغتها، أو بين اللغة العربيّة وأبنائها، وسنرى بعد المضيّ في أفكار هذا البحث أن الدائرة ستتسع حتى تشمل فكرة الترابط والالتحام بين كل المتحدثين بلغة ما ولغتهم تلك، التي يتخذونها أداة العلم والمعرفة والاتصال والعبادة، وأداة لاستخراج كل ما لدى الأمة من طاقات الإبداع والحضارة.

عَرَفَ القرن العشرون تسارعاً مذهلاً في التقدم العلمي، وفي تطور البحوث العلمية المتقنة في مختلف موضوعات المعرفة سواء أكانت في العلوم التطبيقية البحتة، أم في العلوم الإنسانية الأخرى. وقد حظي ميدان العلوم اللغوية بمساحات شاسعة في خارطة البحث العلمي، وبخاصة ما كان من ظهور العديد في المدارس اللسانية الحديثة، والكثير من المناهج اللغوية المتداخلة، والعدد الوفير من العلماء والباحثين ممن خلّدوا أسماءهم فيما توصلوا إليه ونشروه من مبادئ كثيرة في مجال علم اللغة الحديث.

في هذه الأفكار اللغوية الحديثة ظهرت عدة ثنائيات في الفكر اللغوي منها: ثنائية اللغة واللسان، وثنائية الدال والمدلول، وثنائية منهج التعاقب والتزامن في دراسة اللغة، وثنائية الأصالة والمعاصرة، وثنائية الكفاية (القدرة) والأداء. وكان من أشهر علماء هذه النظريات الحديثة دوسوسير في أوروبا، وتشومسكي في أمريكا.

يعالج هذا البحث ثنائية جديدة، ربما هي القاعدة الأساسية في البناء اللغوي. تلكم هي ثنائية: الأمة واللغة الأم: أيهما يصنع الآخر؟ قلت إنها القاعدة الأساس، لأن هذه الثنائية تبحث في أصل تَشَكُّل اللغة في أي مجتمع، ولدى أي فرد من أبناء هذا المجتمع، كما تبحث في الصلة الوثيقة بين هذين الطرفين اللذين يشكلان محور القضية، اللغة والأمة، وعلى هذا الأساس يمكن أن نضع التساؤلات التالية

التي يرتبط بعضها ببعض لتشكل في النهاية جواباً – إن شاء الله– شافياً في هذه المسألة:

-كيف يكتسب الفرد – في أي بيئة يحيا فيها– لغته، وكيف تتشكل – إذن– لغة المجتمع؟

-هل يمكن البحثُ في شؤون اللغة بِمَعْزلٍ عن المجتمع، أو الحديث عن شؤون المجتمع بِمَعْزِلٍ عن اللغة؟

-هل يكون الفرد عربياً بلغته العربيّة، أم تكون اللغة عربيّةً بأبنائها؟

ثمة أمر لا بد من الإشارة إليه في هذا السياق، ذلك أن معظم البحوث والدراسات، والمحاضرات، والحوارات، حول هذا الموضوع إنما يغلب عليها الحديث العاطفي، والآراء الحماسيّة، التي تتحدث عن أثر اللغة في نهضة الأمة، ومكانة اللغة في ازدهار المجتمع، تلك الحوارات التي لا تبنى إلا على أساس الحماسة النظرية للغة، والمكانة الخاصة للغة العربيّة لارتباطها بالقرآن الكريم.

والشأن في الدراسات والبحوث العلمية أن تبنى على أسس علمية سليمة، وتنطلق من أهداف محددة، وأن تسلك طريقاً علمياً تجريدياً في البحث، وأن تفضي إلى نتائج منطقية صحيحة، قابلة للتطبيق، وأن يشتق منها توصيات توضع موضع التحقيق والتنفيذ، وإلا فإن الأمر يبقى على حاله، ويبقى الأمر يدور حول محوره، بل إن كثيراً من الدراسات والبحوث يطويها أصحابها ويخبئونها في حرز حريز، وملف أنيق، حتى إذا انعقد مؤتمر جديد، ودعا داع إلى البحث في شؤون اللغة العربية استلّ ذلك البحث من حرزه، وألقى به على مسامع القوم الذين اعتادوا هذا القول، وهذا الأسلوب، حتى كان الأمر واجب يؤدى، ومؤتمر يرصد في

أعمال المؤسسة التي دعت إليه، وكفى الله المسؤولين والقائمين على أمر اللغة، مسؤولية السؤال والجواب، والمساءلة والعتاب.

كيف يكتسب المرء لغته؟

لنبدأ من الخطوة الأولى، من الأسرة الصغيرة، وهي أصغر وحدة في المحيط الاجتماعي. إن الأولاد الذين يبدأون تباعاً مسيرة حياتهم في هذه الأسرة، يتعلمون لغتهم في لبناتها الأولى مما يستمعون إليه وما يشاهدونه من الوالدين، وممن يحيط بهم من أفراد الأسرة ذلك أن الطفل يولد على الفطرة، لا يعلم شيئاً، وعندما يبدأ سمعه وبصره في العمل تبدأ بذلك الرحلة الطويلة في الحياة، حيث يتعلم الطفل في البداية لغته من بيئته المحدودة، وهي بيت أسرته. تدبر قول الله عز وجل في الآية (78) من سورة النحل: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

هذا – أيها السادة– إعلان إلهي يحدد طريق البداية الأولى في تعلم اللغة، ويحدد مسؤولية الوالدين أو من يقوم مقامهما في بناء لغة الطفل. وقد عززت الآيات القرآنية هذا المبدأ بشكل يقيني علمي. ذلك أن الآيات الكريمة جمعت بين خلق الإنسان أول ما يرى النور وبين تزويده بالسمع والأبصار والأفئدة، لكي يعلمنا الله عز وجل الأسلوب الذي يكتسب به الإنسان لغته.

– يقول الله عز وجل في آيات سورة السجدة 7-9: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ∃ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ∃ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)

– ويقول تعالى في الآية 23 من سورة الملك: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ).

وهكذا تستمر هذه النظرية العلمية في كيفية اكتساب اللغة والمعرفة في كل الآيات التي جمعت بين خلق الإنسان وتزويده بالسمع والأبصار والأفئدة(١).

ومن الجدير بالذكر أن هذه النظرية في اكتساب اللغة والمعرفة ليست خاصة باللغة العربية ولا بالإنسان العربي بل هي عامة في (الإنسان) حيثما كان على سطح هذه الأرض، مهما امتد الزمان واتسع المكان. ذلك أن الله عز وجل، لا إله إلا هو، إله واحد، شاءت حكمته وقضى علمه – سبحانه– أن يخلق الكون على الصورة التي خلقه عليها، وأن يجعل في الأرض – وهي جزء من هذا الكون العظيم– خليفة، (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(٢).

هذا الخليفة هو الذي قال الله عز وجل في أول خلقه له: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ∃ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ∃ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ∃ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ)(٣).

هذا الخليفة هو الإنسان. فالإنسان – في القرآن الكريم– وفي اللغة كلها، هو مصطلح على البشر الذين يعمرون هذه الأرض، منذ خلق الله عز وجل آدم، وهو

(١) انظر لمزيد من البيان الآيات الكريمة: 38–42 من سورة مريم، 31 من سورة يونس 20 من سورة هود، 36 من الإسراء، 78 من (المؤمنون)، 19–23 من فصلت، 26 من الأحقاف، 46 من الأنعام، 23 من الجاثية، 7 من البقرة.

(٢) البقره: 30.

(٣) سورة ص: الآيات 71–74.

الإنسان الأول[١]، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. هذا (الإنسان) على مرّ الأزمان واتساع المكان هو جنس بشري متشابه في خلقه وفي مكونات جسده، وفي طريقة ولادته ووفاته، وفي أجهزة جسده المتعددة، كأجهزة السمع والبصر والنطق والكلام والإحساس والحركة وكل شيء، الإنسان هو الإنسان في كل الأجناس والأقطار، إنما يختلف الفرد عن الآخر ببصمات وصفاتٍ لا يصنعها إلا الله عز وجل، ولا يقدرها إلا هو سبحانه لحكمة إلهية أرادها. ولذلك يذهب الإنسان من قطر إلى قطر؛ بل ربما يغير حياته من مكان إلى مكان، فيذهب إلى المكان الجديد، فيأكل مثل ما يأكل الناس، ويشرب الماء الذي يشربون، ويتكلم كما يتكلمون، ويسمع ويبصر ويحسّ ويشعر تماماً بالأسلوب نفسه وبالكيفية نفسها. وليس أدل على ذلك من تشابه الأصوات عند كل البشر، واتفاق مخارجها. فالسين عند العربي – مثلاً– صوت أسناني لثوي مهموس احتكاكي مرقق [٢]، وهي كذلك عند الأمريكي والصيني والهندي والأسترالي والأوروبي، فلن تجد إنساناً في الدنيا تخرج السين عنده من عير هذا المخرج، وكذا كل صوت من أصوات اللغة. إن الأصوات التي تتشكل منها اللغات الإنسانية كلها، وإن الطريقة التي تتشكل بها هذه الأصوات لدى كل إنسان هي طريقة واحدة، هي أنّ الطفل يسمع ويبصر، ويربط بسمعه وبصره بين ما يستمع إليه وما يبصره، فتتشكل عنده صورة الأصوات. إن صوت الهمزة، مثلاً، والباء والتاء، والثاء.. إلى آخر قائمة الأصوات، متشابهة إلى حدة بعيد عند كل الأجناس، لاحظ مثلاً قولهم باللغة الإنجليزية He can do this thing، لاحظ أصوات الهاء وقارنها بالصوت نفسه

(١) أشير هنا إلى قضية كبيرة أثارها د. عبدالصبور شاهين في كتابه أبي آدم بين بدء الخليقة ووهم الحقيقة، قال فيها إن آدم الذي ننتسب إليه ليس هو أول من خلق الله، بل سبقه خلق كثير إلى آدم الأول، وهذه قضية نوقشت كثيراً وليس هنا مجال تفصيل القول فيها.

(٢) د. محمد جواد النوري، وعلي خليل حمد، فصول في علم الأصوات ص132.

في (هي) والكاف في (can) بالكاف في (كان) العربية، والدال عندهم بالدال عندنا، وهكذا، إن الأصوات واحدة، اللهم إلا ما كان من اختلاف يسير في نطق بعض الأصوات التي يختلف نطقها من لغة إلى أخرى، نتيجة ظروف بيئية طويلة. وما كان أرقى تعريف ابن جني للغة عندما قال إنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[١].

والأصوات لا تكون إلا بالاستماع. واللغة – إذن– لا تتعلم، ولا تكتسب إلا بالسمع. هذه حقيقة علمية خالدة، وهذا منهج إنساني عام. حققته الشعوب بأساليب مختلفة، ونماذج متنوعة. في اللغة العربية، – مثلاً– في عصورها الذهبية الأولى، كانت اللغة تنتقل من جيل إلى جيل بالاستماع والمشافهة. كانت تعقد للشعراء الأسواق الأدبية يتناشدون فيها ويتنافسون، ولكل قبيلة شاعرٌ أو أكثر، ولكل شاعر راوٍ، وهذا الراوي يكون لشعره هو أيضاً رواةٌ من بعده، وهكذا تستمر الرواية حتى كان عهد التدوين. ولما كان عهد التدوين لم تنته الرواية ولم يذهب أثرها الكبير في تعلم اللغة ونقلها. وإضافة إلى ذلك كانت بعض القبائل تعرف بصفاء سليقتها، وفصاحة لسانها، وكانت بعض القبائل تعرف بأنها القبائل التي يحتج بشعرها في تأسيس النحو وتدريس شواهده. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهر باباً واسعاً تحدث فيه عن هذا الأمر، وعدّ القبائل التي يحتج بها، وتلك التي لا يحتج بشعرها في قواعد النحو واللغة، وبين أسباب ذلك في عرض لغوي دقيق[٢].

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، دار الكتب المصرية، 1952، ج1 ص33.

(٢) جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1976، ص56-58.

وفي هذا السياق نذكر أن كثيراً من الأسر والقبائل، وشيوخ العشائر، ووجهاء القوم، كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية ليتعلموا الفصاحة والبيان، ويستمعوا إلى اللغة الفصيحة في صورتها الصافية، وكان بنو سعد بن بكر من القبائل التي عرفت بالفصاحة والبيان، وكان الناس كثيراً ما يرسلون أبناءهم إليها، ومن هؤلاء شيخ قريش، عبدالمطلب بن هاشم جد النبيّ – صلى الله عليه وسلم- الذي أرسل حفيده إلى هذه القبيلة، قال الشيخ محمد الخضري في كتابه نور اليقين في سيرة سيد المرسلين: "وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد؛ وكانوا يقولون: إن المُربّي في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعديّة... ودرت البركات على أهل ذلك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو على أربع سنوات" [١]. وإشارة إلى هذه الحقيقة ورد الحديث الشريف "أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر"[٢].

وقد استدل بعض العلماء بهذا القول على فصاحة قريش وما تبوأته اللهجة القرشية من مكانة لغوية بين قبائل العرب، واستدل به آخرون على فصاحة البادية العربية بدليل إرسال العرب أبناءهم إليها[٣].

---

(١) محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار الخير، دمشق، الطبعة الثانية، 1988، ص19.

(٢) انظر في مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ج1 ص133.

(٣) بيد أن الدكتور منير شطناوي من الجامعة الهاشمية ناقش هذا القول في بحث علمي رصين، بعنوان: "القول المأثور: أنا أفصح من نطق بالضاد... حقيقته ومفهومه وأثره في الدرس اللغوي" نشره في المجلة الأردنية للغة العربية وآدابها، التي تصدر عن جامعة مؤتة/ الأردن، المجلد الخامس العدد 3، تموز 2009م. وقد توصل فيه إلى أن هذا قول مأثور، معناه صحيح، ولكنه لا أصل له.

إن هذا يدل دلالة وافية على أثر الاستماع في تعلم اللغة وتعليمها، وإن لنا أن نسمو بأثر هذا الاستماع لنجد أنه هو الذي يشكل الصورة الصافية الناصعة للغة التي يتعلمها أبناءُ المجتمع، ولكنه في الوقت نفسه هو الذي يصنع أبناءَ هذا المجتمع على هذه الدرجة العالية من الفصاحة، فكيف تصنع إذن؟ وكيف نحدد العلاقة والصلة بين اللغة الأم والمجتمع الذي تحيا فيه" أو بين المجتمع الذي يمارس حياته واللغة التي يصطنعها في مسارب هذه الحياة الكثيرة.

إن العلاقة بين المجتمع واللغة علاقة وثيقة، وعندما ننعم النظر في هذه المسألة، من ناحية علمية، واجتماعية، ونفسية وتربوية، نجد "أنه لا يمكن أن ندرس مواقفنا من اللغة بمعزل عن مواقفنا من المجتمع"[١]. ولله در الجاحظ إذ يعبر القرون، ويسبق الدراسات اللغوية والنفسية جميعاً إذ يرى أنه "من خلال اللغة يستيقظ المجتمع ومن خلال وجه آخر منها يستيقظ الفرد بخصوصيته"[٢]... "والذي يملك اللغة خليق بأن يسود في المجتمع، والعجز عن الكلمة عجز اجتماعي في المقام الأول، وأن العلة موجودة في الناس وليس في اللغة، لأن بعضهم يميل إلى التقهقر، والبعض الآخر إلى التقدم"[٣].

إن اللغة هي التي تصنع الأفراد، ومن ثم المجتمع الكبير. إن كثيراً من آيات القرآن الكريم تبدأ بذكر الفرد، أو بضمير الفرد الواحد، ثم تنتهي الآية نفسها بضمير الجمع، وما ذلك إلا ليعلمنا الله عز وجل أن الفرد الواحد يصنع المجتمع،

---

(١) د. مصطفى ناصف، محاورات في النثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 218، شباط، 1997، ص27-28.

(٢) من منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، كتاب "الموسم الثقافي التاسع والعشرون" الجامع لبحوث مؤتمر "اللغة العربيّة ووحدة الأمة"، 22-23 تشرين الثاني 2011م. انظر مقالة د. سالم العموس بعنوان: دور اللغة العربية في بناء المجتمع العربي وتطوره، ص329.

(٣) المرجع السابق، ص330.

وأن المجتمع والأمة هم مجموعة متكاملة متعاونة متلاحمة من أفراد صالحين، مزوّدين بوسائل الحياة القويمة، فالفرد لا يقوم وحده، والمجتمع وَحْدَةٌ متكاملة من أفراد، يقول الله عز وجل: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[١].

- من أسلم وجهه لله،
- وهو محسن،
- فله أجره عند ربه،

كل هذا في صفات الفرد الصالح، الذي أسلم لله عز وجل وأطاعه، وقام بواجباته، إلى درجة الإحسان العالية فهو الذي يستحق الأجر الوافي عنده وبه. بعد هذا ينقلب التعبير إلى صورة الجمع:

- ولا خوف عليهم
- ولا هم يحزنون،

ومثل هذا نقرؤه ونفهمه من قول الله عز وجل في سورة النحل: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[٢].

إذا تشكل من هؤلاء الأفراد هذا المجتمع الآمن، المطمئن الذي يسير في حياته في ظلال طاعة الله ورضاه، فهو – إذن– يحظى بتوفيقه وهداه.

---

(١) سورة البقرة: 112.

(٢) سورة النحل: 97.

إن هذا الفرد الذي يشكل مع أمه وأبيه وإخوته الأسرة الصغيرة، التي هي اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي الكبير، إن هذا الفرد يتلقى لغته من هؤلاء الذين يحيطون به، وأولهم هذا المحيط الأصغر وهو الأسرة، وما يتداخل معها من وسائل أخرى يتعلم منها الطفل لغته، كأجهزة الإذاعة والتلفزة وما تطور عنها من أجهزة أخرى أشد منها خطراً مثل وسائل المخاطبة الإلكترونية.

إن هذا المحيط الذي يستقبل الفرد العربي الآن منذ ولادته بما فيه من وسائل الإعلام المختلفة، التي تضاف إلى اللغة المسموعة التي يسمعها في محيطه حيثما ذهب، إن هذا هو الذي يشكل القواعد الأساسيّة التي تبنى عليها لغة الفرد/ المجتمع بشكل عام. إن هذه قاعدة أساسيّة يقوم عليها بناء اللغة في مجتمعاتها المختلفة، وعندما تدرس هذه الحقيقة على مرّ السنين ترى أنها هي التي تشكل في أثناء الزمن المستمر المتطاول في حياة الأمة ما يسمى (اللاوعي الجمعي) لكل لغة، وإن أظهر ما كان هذا وما سيكون هو في اللغة العربية وأبنائها، إذ هي الآن اللغة الوحيدة بين آلاف اللغات في العالم التي ما تزال مستمرة عبر القرون، شامخة، حاضرة في شتى أنحاء الكون بتراثها العظيم، من شعر ونثر ولغة وعلوم وأصول في الفقه والتفسير، مما يشهد به العالم كله قبل أن يتكلم فيه أبناؤها. يقول د. حنا عبود "إن اللغة الحاضرة لمجموعة من الناس هي من نتاج اللاوعي الجمعي الذي هو نوع من خزّان للمعلومات تتسرب إليه من خلال الممارسة والنشاط الجمعيين، وهذا اللاوعي يصبح المكمن الرئيس للصور والمعلومات باستطاعته أن يخرجها عند الحاجة، وهو لا يخضع لقاعدة علمية صارمة، بل يتجلّى في التجارب والسلوكات التي تخرج من المخيلة النفسية، وخروجها لا يخضع لحكم معين من الكاتب أو القارئ أو أي فرد اجتماعي، فهو لا يتحكم بها

لأنها رواسب غريزية تتحرك بوساطة آلية غير واضحة تماماً" [١]. إن نظرية اللاوعي الجمعي هذه عرفت في الدراسات اللغوية النفسية الحديثة بنظرية (يونغ) نسبة إلى العالم النفساني غوستان كارل يونغ الذي يرى "أن العمق الإنساني واحد سواء أكان في الجماعة البشرية الواحدة أم على الصعيد الإنساني، وليس من شيء جمعي صنعه البشر يموت، فاللغات والعادات والتقاليد والأديان تبقى حيَّة في اللاشعور الجمعي على أساس أنها ثوابت تعيش في الأعماق الإنسانية"[٢].

ومن الجدير بالذكر أن هذه النظرية التي نادى بها يونغ في العصر الحديث، إن هي إلا تفصيل منظم، وتحليل واضح لفكرة أرهص بها من قبل ابن رشيق القيرواني عندما رأى أن كل ما يكتسبه الإنسان من خلال سمعه وبصره وحياته يتحول إلى سبيكة في صدره، ما تزال تنمو وتتراكم، وتتسع حتى تشكل قاعدة معلوماته وثقافته وعلومه وآدابه أثناء حياته[٣].

إن المرحلة الأولى في حياة كل فرد هي أخطر فترات حياته من حيث اكتساب اللغة والمعرفة والثقافة، وقد يرى علماء اللغة وعلماء النفس والاجتماع أن ما يكتسبه المرء في السنوات الست الأولى من عمره، يشكل القاعدة الأساسيّة بما يتحصل عليه في أثناء عمره كله. ومن هنا كان لزاماً على الأمة أن تعتني باللغة الأم في هذه المرحلة التأسيسية وأن تجعل طريقة تعليمه قائمة في المقام الأول على الاستماع الفصيح، وعلى الاهتمام بالنصوص الفصيحة، والعادات اللغوية السليمة، إن الأمة في هذه المرحلة هي التي تصنع اللغة، وهي التي تزرع في

---

(١) نقلاً عن كتاب "الموسم الثقافي التاسع والعشرون" لمجمع اللغة العربية الأردني، ص331.

(٢) المرجع السابق، ص331.

(٣) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ص

نفوس الأبناء حب اللغة والاعتزاز بها، وحب تعلمها، والاستماع إلى ما فيها من ذخائر إنسانية ونصوص أدبية، تشكل الزاد الرئيسي لهم في أثناء بناء شخصياتهم الفكرية والعلمية يوماً بعد يوم. وعاماً بعد عام.

إن الأطفال في هذه المرحلة هم أشبه بالمسجلات الكهربائية التي تسجل في ذاكرتهم – صوتاً وصورة– كل ما يستمعون إليه، وما يبصرونه في أثناء حياتهم اليومية ثانية بثانية. وفي هذه المرحلة التي تمتد منذ ولادته حتى نهاية السنة الخامسة من عمره يكون السمع والبصر هما المكوّن الرئيسي لما يتعلمه الطفل في أثناء ممارسة حياته اليومية. فالفرد من أي أمة كان – يولد لا يعلم شيئاً، ثم يتولى السمع والبصر تسجيل كل شيء لديه، قبل أن يصل إلى سن الإدراك والعقل والتمييز. يقول الله عز وجل: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(١).

- الاعتزاز باللغة والإيمان بأهميتها والتمسك بها:

في هذه المرحلة التأسيسية لحياة كل فرد ينبغي على الأمة أن تسير وفق مناهج مقررة، وبرامج منظمة على تحقيق عدة أهداف من شأنها أن تصنع للمجتمع لغته التي يعتز بها، يجب أن تتوجه الجهود الكبيرة إلى تحقيق هذه الفكرة الأساسيّة، وهي استدخال حب اللغة في قلوب أبنائها، وإيجاد الشعور بالعزة عند التحدث عنها والتكلم بها، وفي المقابل الشعور بالحرج والإثم إذا أعرض عنها أو أخطأ فيها، أي فرد من أبناء المجتمع، لأن هذه الخطوة هي القاعدة الأساسية التي يجب أن ينطلق منها في تصميم العلاقة بين اللغة والمجتمع.

---

(١) سورة النحل: 78.

إن هذه القاعدة الراسخة هي التي انطلقت منها الأمة العربية الإسلامية عندما شاء الله عز وجل وقضت حكمته أن يتنزل القرآن الكريم، بلسان عربي مبين. إن إيمان الناس بالله عز وجل، وإيمانهم بكل ما ورد في كتابه الحكيم؛ جعلهم يؤمنون باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، فصار لها في قلوبهم المكانة نفسها، التي للقرآن الكريم، لأن القرآن الكريم لا ينفصل عن اللغة التي نزل بها إننا لو تمثلنا الآن بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والآثار المتواترة والأخبار المروية لقال بعض الناس إن هذه حجج معروفة، ونغمات مكرورة، وأن هذه أقوال وأخبار يرددونها في هذه المناسبات التي تعقد للحديث عن اللغة، وبعدها كفى الله المسؤولين عن اللغة الحرج والهمّ والكلام. ولكن هؤلاء عندما يستمعون إلى ما يوليه المسؤولون عن اللغة الأم في الدول الأخرى من الاهتمام والعناية بلغاتهم تتعقد عيونهم بالدهشة أن يكون ذلك كان عندهم، (١) وأن الإيمان بأهمية اللغة يصل عندهم إلى حدّ التقديس وأن اللغة في عقائدهم هي العامل الفعّال في بناء المجتمع وتفوقه وتقدمه.

إن فرنسا لديها وزير مختص بشؤون اللغة القوميّة، وهو وزير أساسي في دولتهم. وقد أصبح اعتزاز الفرنسيين بلغتهم مضرب الأمثال. إنك لا تجد لديهم وفي شوارعهم وفي مؤسساتهم أي كلمة غير فرنسية. وإذا دعت الحاجة الماسة إلى كلمة غير فرنسية في إحدى اللافتات أو المؤسسات أو المراسلات الرسميّة، فإنها تكتب بخط صغير في أسفل الصفحة من أجل أن تقوم بالغرض الطارئ الذي دعا إليها. ولقد تناقلت الأنباء خبر وزير الثقافة الفرنسي الذي زل به اللسان فنطق كلمة

---

(١) انظر هذه الفكرة، وهذا التعبير اللطيف في كتاب الأستاذ نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، الطبعة الثانية، عمان، 1987، ص16.

إنجليزية عامة في خطاب عام أمام طلبة جامعة السوربون، فما زال الطلبة يصفرون ويصيحون حتى أوقفوا الوزير عن خطابه واضطروه إلى الاعتذار.

وفي عام 1940 كانت لندن تُضرب بالطائرات الألمانية وكادت تحترق عن آخرها، فوقف ونستون تشيرشل يخطب في مجلس اللوردات أن إنجلترا ستتحالف مع الشيطان من أجل إنقاذ بريطانيا، وحدث أن ظن الحاضرون أنه استعمل في خطابه الغاضب كلمة غير إنجليزية، فأوقفوه واحتجوا عليه، فما كان منه في اليوم التالي إلا أن حمل أربعة معجمات أساسيّة، وجاء بها إليهم ليثبت لهم أن الكلمة التي نطق بها ليست غريبة عن الإنجليزية، بل هي كلمة لاتينية، وهي كلمة واحدة منتشرة في اللغات التي تفرعت عن اللغة اللاتينية.

في ألمانيا، لا ينجح أي طالب في أي امتحان عام، أيا كان التخصص الذي يدرسه، إن وقع في عدد من الأخطاء اللغوية، لا يجيز القانون عندهم تجاوزه. وفي المجتمع الألماني يعد (المعلم) أرقى الفئات الاجتماعيّة منزلة وأسماها مكانة. معلمة ألمانية خرجت من مدرستها وركبت الحافلة المقسمة إلى درجتين، وأجرة الدرجة الأولى ضعف أجرة الدرجة الثانية، وكانت الحافلة فارغة لأنها تبدأ خط سيرها من أمام المدرسة، فصعدت المعلمة إلى الدرجة الأولى. وعندما سألها أحد الصحفيين لماذا تركبين هنا، والحافلة خالية، فقالت باعتداد واهتمام: (أنا معلمة)، كأنها تريد أن تقول له إنها لا يجب أن تبدو أمام الناس في غير المنزلة التي يضعونها فيها.

في أمريكا، وفي أوائل السبعينيات، رشح الكسندر هيج نفسه للمنافسة على رئاسة الولايات المتحدة، وذهب ليخطب في جامعة كاليفورنيا خطاباً انتخابياً، ومن المعروف أنه كان متقاعداً عن رئاسة قوات حلف الأطلسي، وأنه تفرغ للسياسة والرئاسة، فلما خرج من الاحتفال الانتخابي فوجئ بأن اسمه مسجل في سجل

العار أمام الجامعة، وعندما سأل عن ذلك، قيل له: إنك أخطأت في اللغة أخطاء كثيرة، في أثناء الخطاب، فتأمّل وتأمل جداً كيف يكون الحال لو أننا وضعنا سجلاً للعار أمام مؤسساتنا التعليمية والثقافيّة والتربوية وغيرها من المؤسسات العامة.

في اليابان، يدرس بعض الطلبة اليابانيين في دول غربية كثيرة، مثل فرنسا، وإنجلترا وأمريكا وإسبانيا وغيرها. ويشترط على كل طالب يتخرج من أي جامعة غربيّة أو أجنبيّة بعيداً عن اليابان؛ أن يترجم إلى اليابانية أحدث كتاب درسه في تخصصه في الدولة التي تخرج فيها، ولا تصدق شهادته ولا يعدّ خريجاً حتى يقدم إلى أمته وإلى لغته اليابانية هذا المرجع الحديث المترجم عن لغة الدولة التي درس فيها.

قد يبدو في هذه الأقوال – لأول وهلة– جانبٌ عاطفي كبير، ولكني أراه كلاماً علميّاً ينبثق من حقائق راسخة، إذ إن الحقائق العلمية تنبثق من أعلى درجات الإيمان الإنساني بالفعل الذي يقوم به المرء. بل إن الدراسات الحديثة لا تفصل بين شدة الإيمان بالأمور الغيبية وشدة الاعتقاد بالأمور الدينية، وقوة الاندفاع نحو الكشف عن الحقائق العلمية، والنوازع النفسية، وإن هذا مبدأ رسّخه القرآن الكريم عندما جعل القلب الإنساني موضع العقل والفقه والعلم من جهة، وموضع الحب والإحساس والوجدان والعاطفة من جهة أخرى. ولذا فإن إيمان الإنسان بالمسلم بعقيدته وشرع ربه الحكيم، يجعله شديد الإيمان أيضاً بما تزوده به تلك الآيات من معان ودلالات ومناهم علمية وعملية في حياته.

إنّ الإنسان الذي يستغرق في صلاته آناء الليل وأطراف النهار، وإن الإنسان الذي ينفق ماله في سبيل الله، وفي صلة الأرحام، وفي مساعدة الفقراء والمساكين، وطلبة العلم، ورعاية الأيتام وهو ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، ويعطي بيمينه ما لا تعلم شماله، بالليل والنهار سراً وعلانية، وإن الإنسان الذي يطوف حول البيت

أشواطاً وأشواطاً ضمن ملايين البشر الذين يطوفون معه، يتداخلون في بداية طوافهم ونهايته، والطواف مستمر طوال الأيام والسنين، وإن الإنسان الذي ينذر لله صوماً فلا يتذوق شيئاً من ماء أو طعام حتى يتم صيامه إلى الليل، إن كل هؤلاء لا يحملون معهم بطاقة أعمال يختمونها على آلة خاصة في نهاية كل عمل، لتحسب وتعدّ لهم ما قاموا به من ساعات عمل ليقبضوا أجورهم بعد ذلك.

إن كل هذه الأعمال وغيرها كثير مما ينشغل به المسلم في عبادة ربه ليلاً ونهاراً يعد شاهداً كبيراً على إيمانهم بالله عز وجل، الذي لا يعزبُ عن علمه جل شأنه شيء في الأرض ولا في السماء. إن إيمانهم هذا اليقيني بالله عز وجل يدفعهم إلى التصديق التامّ بأن ما زوّدهم به الله سبحانه، من بيان عربي مبين، أنزل به كتابه الكريم، هو المنهج الوحيد والسبيل القويم والصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكوه ليستأنفوا حياة العلم والفكر والحضارة والقوة التي قادوا بها الدنيا عندما تمسكوا بدينهم واعتزوا بلغتهم، واتخذوا منها وسيلة العلم والعمل والتعليم والتدريس والتأليف والترجمة طوال عدة قرون، حتى سارت حضارتهم ولغتهم مع الليل والنهار على امتداد الزمان واتساع المكان.

نزل القرآن الكريم، بلسان عربيّ مبين، فأشرقت شمس الحضارة والعلم على الكون كله، وما زالت حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ونزل القرآن الكريم، وكانت الأمة العربيّة على ما كانت عليه من فصاحة وبيان، ومن تعدد اللهجات والعادات اللغوية، وكان يمكن أن تستمر هذه اللهجات المتعددة في التنوع والتباعد بعضها عن بعض حتى يفضي بها الأمر إلى لغات عدة، لا يكاد يدرك الباحث الأصول المشتركة لكل منها، مثلما حدث في اللغة اللاتينية التي تفرعت إلى لغات عديدة كالإنجليزية والإسبانية والإيطالية وغيرها، ثم إن كلاً من هذه اللغات تفرعت

إلى لهجات وعادات لغوية حتى صارت تلك اللغات تتغير صورتها تقريباً كل قرنين أو ثلاثة قرون.

ولكن اللغة العربية كان لها في علم الله عز وجل وحكمته وتدبيره شأن آخر. أراد الله عز وجل لها أن تكون لغة الرسالة الأخيرة الباقية إلى يوم الدين تحمل شرعه الحكيم، إلى كل أطراف الأرض، وأن تكونَ لغةَ (الإنسان) الذي خوطب في القرآن الكريم بشرع الله الخالد. وقد مرّ بنا في هذا البحث أن الإنسان هو الإنسان بكل ما فطره الله عليه من صفات أساسيّة، ومكونات رئيسية في خلقه. إن اللغةَ العربيّة لغةُ الرسالة الأخيرةِ من السماء إلى الأرض ولغةُ الإنسان الذي كلف بحمل هذه الرسالة وتكاليفها، ولذلك كانت حكمة الله عز وجل وراء حفظ هذه اللغة الخالدة وتوحيد طريقة النطق بها، مهما اختلفت ألسنة الخلق في شتى بقاع الأرض، وإن هذا لهو الفهم الحق، والشرح الدقيق لقوله عليه الصلاة والسلام في وصف القرآن الكريم "... ولا تلتبس به الألسنة..." [١] ذلك أن الله عز وجل أنزل القرآن الكريم، وجعله سياجاً وحماية للغة العربيّة، وأنزل القرآن الكريم مرتلا وفق صورة تعبيرية موّحدة، أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن الكريم وفق هذه الصورة التي نزل بها، المتمثلة في قول الله عز وجل: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ∃ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ∃ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ∃ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ...)[٢]. إن قراءة القرآن الكريم على الصورة التي أنزل عليها وقرئ بها كفيلة بأن توحد الصورة القرائية للنصّ القرآني مهما اختلفت ألسنة القراء والدارسين في بقاع الأرض. وهذا هو تفسير ما نراه الآن من توحد صورة قراءة القرآن الكريم لدى مختلف الشعوب، وإن كان أكثرهم لا يعرفون اللغة العربية. بل إن في العالم الآن،

---

(١) جزء من حديث نبوي طويل في وصف القرآن، اقرأه بتمامه في ج 1 ص5 من: الجامع لأحكام القرآن، المشهور بتفسير القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، 1952.

(٢) سورة القيامة: 16–19.

ملايين البشر من حملة القرآن الكريم، يتلونه حق تلاوته، وهم لا يعرفون اللغة، ذلك لأنهم تلقوه سماعاً مرتلاً بالصورة التي نزل عليها. إن هذه القراءة الموحدة هي ما سماه القرآن الكريم (الترتيل القرآني) أخبر به في سورة الفرقان، حيث قال عز وجل: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)[١] وأمر به سبحانه بقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ∃ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ∃ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ∃ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ∃ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)[٢].

إن الترتيل القرآني بهذه الصورة التي نزل عليها: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) وأخبر الله عز وجل بها: (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)، هو – باختصار شديد– المنهاج الإلهي القويم، والتدبير الإلهي المحكم لحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين. ولو تصورنا أن القرآن الكريم نزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– مقروءاً هكذا دون ضوابط صوتية محكمة، هذه التي أصبحت تدرس فيما بعد في نطاق علم الأصوات الذي يهتم بوصف الأصوات ومخارجها وطبيعتها وتأثير بعضها ببعض، لو نزل القرآن الكريم مقروءاً، ولم يلزم أحد بطريقة محددة للقراءة، لتشتت القرآن على سهوب اللهجات واللكنات المختلفة، ولصار يبتعد شيئاً بعد شيء عن صورته الإلهية التي نزل بها، ولاختفى القرآن الكريم بصورته الصحيحة، في ثنايا اللهجات المتعددة، وأرجاء التبدلات الصوتية والتغيرات اللغوية، والتطورات الدلالية التي لا نهاية لها.

إن القرآن الكريم – إذن– حفظه الله عز وجل بمبدأ الترتيل القرآني الذي نزل به، وقرئ عليه. وإن القرآن الكريم بصورته الثابتة، التي لا يأتيها الباطل، ولا

---

(١) سورة الفرقان: 32.

(٢) سورة المزمل: 1–5.

تغيرها السنون، بمنهج علمي محكم، وأسلوب عملي ملزم، هو أيضاً – بحكمة الله وتدبيره– حفظ اللغة العربية من الانقسام والاندثار.

فاللغة العربية باقية ما بقي القرآن الكريم، ودائمة ما دام القرآن الكريم. وإن القرآن الكريم دائم باق ما دامت السموات والأرض، وما اختلف الليل والنهار.

– فأين تذهبون؟

– وكيف يفكر هؤلاء الذين يقولون بفم عريض إن اللغة العربية تحتضر. بل إن أحد كبار اللغويين الذي كنا نعده من الأخيار، خرج علينا بتصريح منذ وقت قريب بأن اللغة العربية بقي من عمرها ثلاثة عقود.

إن اللغة العربية المتمثلة في أبهى صورها، وأزهى زينتها في القرآن الكريم صنعت لمجتمعها هذا المجد العريض، وهذه الحضارة السامقة، وهذا التراث الضخم التي ما زالت البشرية تعتمد عليه في تطورها الحضاري المستمر. وما زالت اللغة العربية، اللغة الأم في المجتمع العربي الإسلامي الواسع، تصنع مجتمعها المتقدم الزاهر إلى مسافة سبعة قرون، أو تزيد، قدمت فيها للإنسان من أصناف العلم وفنون القول ما لا يتسع له هذا المجال. ولكن لا بد من الإشارة السريعة إلى ميادين العلم التي ازدهرت في ظلال القرآن الكريم، وفي حقول القول الواسعة في ميادين الأدب والنقد والبلاغة وعلوم اللغة بشكل عام. وفي أثناء ذلك كله عرفت الإنسانية المصادر والمراجع الكبيرة في مختلف العلوم واستمعت إلى سادة الشعر والبلاغة والأدب، الذين ما زال ذكرهم يملأ الدنيا ويشغل الناس.

- قال أحد المستشرقين الألمان ذات مرة عن الشعر العربي، لو لم يكن عند العرب إلا المتنبي سيظل أدبهم من أرقى الآداب العالمية، ولو لم يقل المتنبي إلا بيتاً واحداً من الشعر، لظل به أشعر الناس، قيل ما هذا البيت؟ قال:

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

-وقال أحد العلماء الغربيين: لو عددنا عشرة من العلماء الذين غيروا وجه العالم، لكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أحد هؤلاء.

إن اللغة العربية هي التي صنعت هذا المجد الكبير وهذا التراث الضخم، لأن الأمة لا تقوم إلا بلغتها، ولا تتفوق ولا تتقدم إلا بلغتها، إن العلاقة بين اللغة الأم وبين مجتمعها علاقة ارتباط دائم، وعلاقة بناء متداخل، وانصهار تام.

تسلح العرب منذ نزول القرآن الكريم بالكلمة القوية واللغة العالية فملكوا الأرض من أقطارها، ووصلوا إلى أعلى درجات العلم، إن هذه حقيقة راسخة، اللغة القوية تصنع الأمة القوية، وليس أقوى من اللغة التي يزود الله عز وجل بها رسله وأنبياءه، وقد نصرهم الله عز وجل ومكن لهم في الأرض بالكلمة الحرة، الكلمة القوية الواضحة، الكلمة الصادقة، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[١].

إن الكلمة لها السلطة الأولى في تشكيل حياة الناس، على مختلف مستوياتهم: حكاماً ومحكومين، وسائلين ومسؤولين، إن الله عز وجل أرسل رسله بالهدى ودين الحق، بكتبه وكلماته، وجعل حكمه كلّه وحكمته جل شأنه مرتبطاً

---

(١) سورة الجمعة: 2.

بكلام الله وكلماته، قال الله عز وجل: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...)(١) وقال تعالى: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٢). إن تعبير (كلمات الله) يشمل الكون كله بما فيه من أسماء ومسميات وأحكام وقواعد وفرائض وسنن وتشريعات وقوانين، ولو أن الخلق جميعاً أمضوا العمر كله في شرح كلمات الله لما بينوا منها سوى أقل القليل. قال الله عز وجل: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٣)، وهذا المعنى نفسه تبينه وتؤكده آية سورة الكهف في قوله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً)(٤).

ذلك أن الكلمة هي الفعل، والفعل هو القوة والحركة والتطور والتقدم نحو الأمام. إن الكلمة هي قانون الحياة الذي يترجم عملاً وسلوكاً وإنجازات في كل مجال وفي كل مكان. إن الكلمة الصادقة هي الفعل اليقيني المبني على المبدأ الصحيح والدين القويم، والعزم الصادق، والهدف المرسوم بالكلمة الصادقة الفاعلة انطلقت الأمة العربيّة إلى الأعلى، إلى السمو الحضاري، فكان منها العلماء في كل مجال، والأدباء في كل فن، وشهدت الحضارة العربيّة أوسع نهضة عمرانية وأغنى حركة تأليفية على مر القرون الماضية.

والكلمة هي اللغة، اللغة التي تصنع الأمة البانية، الأمة الفاعلة، الأمة المنتجة، واللغة هي التي تشكل هوية الأمة دائماً. فليست (العروبة) مثلاً سوى اسم

---

(١) آل عمران: 64.

(٢) التوبة: 40.

(٣) لقمان: 27.

(٤) الكهف: 109.

يستمد قيمته من نسبته إلى اللغة العربية، وإلا فإنه ليس له سلطان دون ذلك. فليست العربية لأحد منكم من أب أو أم، إنما هو اللسان، وهو نصّ حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى بعض الصحابة عندما رآهم يثيرون سلمان الفارسيّ – رضي الله عنه– بشيء سقط على لسانه رأوا فيه لحناً[١].

لقد صنعت اللغة العربية المجتمع العربي وحلقت به عالياً، عدة قرون، منذ القرن الهجري الأول حتى القرن العاشر الهجري، وفي هذه الحقبة التي استمرت عشرة قرون متكاملة كانت شمس الحضارة العربية ساطعة على الكون كله، وفي نهاية هذه الفترة، أي في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجرية ألفت كثير من الموسوعات العلمية، والمعاجم اللغوية، والسير والتراجم، وكتب البلدان والأقطار، ما تزال الحضارة الإنسانية تنهل منه وتعده من مصادر المعرفة الأساسيّة.

إن اللغة العربية كالشمس تشرق في الأجواء الصافية وتنشر ضوءها في كل اتجاه، أما إذا تلبدت الغيوم، وادلهم الجوّ، فإن الشمس تنكسف، ويخفت ضوؤها، وتذهب حرارتها. وإذا كانت اللغة العربيّة قد صنعت المجتمع والأمة بكل كفاءة واقتدار، فإن هذه اللغة قد انحدرت بفعل عوامل كثيرة، وانحدرت معها الأمة العربيّة، وضعفت وأحاط بها الأعداء من كل جانب، وتخلت عن المكانة العظيمة التي كانت عليها.

إن المجتمع الذي عزّ وسما بسموّ لغته آن له أن يدرك أن الدورة الطبيعية في الحياة أن المجتمع لا بد له أن يصنع لغته وأن يسمو بها، لكي يستمر في حياته، وأن ينهض من كبوته، وأن يقف على قدميه من جديد، وأن يمارس ما قام به في صنع الحضارة الإنسانية من قبل، إن هذا يثبت أن ثنائية: الأمة واللغة الأم ثنائية

---

(١) أحمد بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم. تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص169.

بانية وليست ثنائية متناقضة متباعدة، إن وجود أي عنصر من هذه الثنائية عامل فعال في وجود الآخر، فإذا كانت اللغة العربيّة قد صنعت أمتها الماجدة، فقد آن لهذه الأمة أن تحفظ سر وجودها وقوتها، وأن تعيد القوة للغتها، لتكون حاضرة في كل مجالات الحياة، لترد عملياً على كل محاولات النيل منها والإساءة إليها.

تضافرت عوامل كثيرة جداً على إضعاف اللغة العربيّة وإيقاف مسيرتها أو تعطيلها، منها أسباب خارجيّة تتمثل فيما يحوكه أعداؤها من مكائد وعقبات يصدرونها لنا على صورة فلسفات ومناهج تربوية جديدة، أو نظريات مشبوهة، ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبلهم العذاب والدمار.

لقد أدرك أعداء اللغة العربيّة أنها هي سرّ تفوق الأمة العربيّة وتقدمها، فأرادوا أن يهدموها من الداخل، وأن يشنوا عليها الهجمات الهدامة في صورة نظريات حديثة، ومناهج متقدمة، ويمكن أن يشير إلى شيء منها باختصار شديد، لأن هذا البحث لا يتسع لتفصيل القول فيها:

-إبعاد اللغة العربيّة عن مجال التعليم، بحجة أن العلوم تتقدم بسرعة، وأنه ليس لديها من المصادر العلمية، والكفاءات البشرية ما يقوم بذلك.

-إبعاد اللغة العربية عن الحياة، وعن لغة التواصل في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية بحجة أن اللغة العربية قاصرة عن أن تكون لغة الوسائل المتطورة في التواصل والبحث والإعلام.

-استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لأنها حروف غير مستخدمة في الأجهزة والوسائل الحديثة، وأنها حروف فيها مشاكل كثيرة كالصور المتعددة للحرف الواحد، ووجود الحركات الكثيرة التي تلزم لإدراك الدلالة الصحيحة للكلمة.

-استبدال اللهجات واللغات العامية باللغة العربيّة الفصحى بحجة أن اللغة الفصيحة صعبة التعلم والتعليم وأن اللغات العامية أوسع انتشاراً.

وغير ذلك من الأفكار غير الصحيحة عند البحث العلمي الجادّ.

وثمة أسباب داخلية من أبناء الأمة نفسها ومن فعل المجتمع نفسه، يؤدي تضافرها والأخذ بها إلى إضعاف مستوى التعامل باللغة العربية بها عن أن تكون لغة الحياة والعلم والتدريس والاتصال. وسأعرض فيما يلي بعض وسائل العلاج المقترحة ليرتفع المجتمع بلغته، وتعود بدورها إلى القيام بوظيفتها المقدسة، وفي عرض هذه الوسائل يبدو بوضوح تلك الأسباب التي تعمل على إضعاف مكانة اللغة في نفوس أبنائها.

– العمل بكل الوسائل على بناء مكانة اللغة العربية في نفوس أبنائها، حتى تعود كما كانت دائماً اللغة العزيزة المقدمة التي يعد اللحن فيها خروجاً عن الدين.

– الدعوة الملحة إلى تعريب التعليم بكل مراحله، وبخاصة أن الأمة العربية هي الأمة الوحيدة التي تدرس علوماً كثيرة، وتخصصات جديدة بغير اللغة الأم.

– الاهتمام بمعلم اللغة العربية بشكل خاص، والمعلم أياً كان تخصصه بشكل عام، حتى يكون أهلاً لحمل هذه الأمانة العظيمة، وأن يتقبل بإيمان ويقين أن يكون معلماً للغة العربيّة في كلّ مكان يحلّ فيه، وفي كل مناسبة يدعى إلى القول فيها.

إن المعلم الجيد الناجح يصنع طلاباً مخلصين ناجحين، والمعلم قدوة لطلابه في مختلف مراحلهم التعليمية. والمعلم عندما يعشق عمله ويجب لغته يخلص في العمل، ويتفانى في خدمة طلابه، ويزرع في قلوبهم حب اللغة التي هو يحبها ويحب تدريسها والتمثيل بنصوصها البديعة وأدبها الرفيع.

ولكن المعلمين، في معظمهم، في وقتنا الراهن، منذ الربع الأخير من القرن العشرين، وحتى هذا العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، هم – مع الأسف الشديد– في حالة من الضعف وعدم التأهيل، ينعكس سلباً وخطراً على طلابهم.

إن المعلم من ناحية نفسية، ومن جهة علمية لا يملك الفرصة لكي يقوم بعمله خير قيام. فهو من ناحية اجتماعية، ليس في المقام الأول الذي يجب أن يكون عليه، وهذا تقصير شديد من المجتمع الذي يحرص على معالجة الأخطار التي تحيق به، وهو من ناحية علمية بحاجة إلى تأهيل كبير، وإلى إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم، وإلى مراجعة التشريعات التربوية التي تتعلق بمناهج اللغة العربية، وبشروط النجاح والرسوب، وبنصوص المحتوى التعليمي، وما إلى ذلك مما يعدّ عملية تربوية متكاملة. [١] إن المحتوى الذي يدرسه الطلاب، عندما يختار اختياراً تربوياً موفقاً يصنع الجيل المؤمن بربه، والواثق بلغته والخادم لمجتمعه، والساعي لنهضة أمته. لقد أشار طه حسين من قبل إلى خطورة ما يدرسه الطلاب عندما يكون بعيداً عن أشواق الأمة وهمومها. قال في مقدمة كتابه "في الأدب الجاهلي" ما نصه: "إن لغتنا العربيّة لا تدرس في مدارسنا، وإنما يدرس فيها شيء غريب لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته"[٢].

إن إنصاف المعلم، علمياً وعملياً، هو السبيل المهم في إنجاح عملية التعليم، وله أثر كبير في إعادة الحياة إلى اللغة العربية.

+الاهتمام بتطوير وسائل التدريس ووسائل التقويم وإخراج الكتاب المدرسي الجيد، وإعداد المواد النافعة وتوفير المراجع والمصادر اللازمة في كل مراحل الدراسة وهذا كله من شأن المؤسسات التعليمية التربوية وعلى رأسها وزارة التربية

---

(١) انظر في مسألة المعلم وما يتعلق به بحثين لي، نشر الأول في كتاب (الموسم الثقافي السابع والعشرون) لمجمع اللغة العربية الأردني، بعنوان: معلم اللغة العربية في التعليم العام، في 27-29 تشرين الأول، 2009م، والثاني في كتاب (الموسم الثقافي الثامن والعشرون) بعنوان: معلم اللغة العربية في المرحلة الأساسيّة الصفوف الأربعة الأولى، معايير اختياره وتأهيله ودوره في بناء المجتمع المتطور: الواقع والمأمول، وكان ذلك في 26-28 تشرين الأول، 2010م.

(٢) طه حسين، في الأدب الجاهلي، طبعة مصر، القاهرة، 1933، ص7.

والتعليم ووزارة التعليم العالي، والجامعات الرسمية والخاصة، والمؤسسات التربوية بشكل عام.

إن المجتمع الأردني – والعربي بشكل عام– بحاجة إلى حملة وطنية لخدمة اللغة العربية، وإعادة مكانتها الصحيحة إلى المقام الأول الذي يجب أن تكون فيه هذه الحملة الوطنية يجب أن تقوم بها وزارات الدولة كلها، الخارجية والداخلية والبريد والمواصلات والإعلام والسياحة، وكل ما يتصل بها من مؤسسات ودوائر، إن المجتمع الأردني مطالب بأن تحل اللغة العربيّة في كل مكان، وأن تزال من شوارع مدنه وقراه، ومن واجهات مؤسساته ودوائره، كل ما ليس له علاقة باللغة العربيّة.

كذلك يجب أن تقوم وسائل الإعلام المتعددة بواجبها الكبير في خدمة اللغة العربية، وإن مكانة التلفزة والإذاعة والصحافة كبيرة في التأثير والتوجيه.

إن أمر اللغة لا يصلح إلا بما صَلَح به أوله، لقد حملت اللغة العربية النصوص الأدبية العالية من شعر ونثر، ومن قصائد وخطب ورسائل وحكم وأمثال ووصايا في العصور المتقدمة الزاهية، ثم حملت القرآن الكريم ببيانه المعجز، وبنائه الفريد، علينا، على المجتمع الذي يريد أن يصنع لغته، أن يعود إلى القرآن الكريم، الذي أنزله الله عز وجل بلسان عربي مبين، وأن يتخذ منه المصدر الأول لتعلم اللغة وتعليمها، ثم يستعين بعد ذلك بكل كنوز هذه اللغة من ذخائر لغوية، ونصوص عالية، يقوم في مقدمتها الحديث النبوي الشريف، إن اللغة العربيّة كالشمس تشرق إذا اتصلت بالقرآن الكريم والنصوص الفصيحة وتضعف وتغيب إذا اهتمت بمثل ما نراه مسيطراً الآن على حياتنا الأدبيّة مما يحاولون أن يقفوه على قدمين خشبيتين صناعيتين، ولكن هيهات.

يقول المستشرق أ. ولفنسون: "الأحرى بأبناء العربيّة أن يعودوا إلى أمهم لتعيد إليهم بنية نفوسهم وتقودهم إلى بناء مجتمع علمي سليم يحمل في رحمه معالم التطور"(١).

كلمة أخيرة، أشواق وآفاق:

كتب الأديب الفرنسي (جول فيرن) قصة من الخيال العلمي، يمكن تلخيصها في أن مجموعة من الباحثين المغامرين حفروا نفقاً باتجاه مركز الأرض؛ وعندما بلغوا ذلك المركز، ركزوا فيه لوحة كبيرة سطروا عليها عبارات باللغة العربية تخلّد إنجازهم الكبير. ولمّا سُئل الأديب الفرنسي: لماذا اخترت أن تكون اللوحة باللغة العربيّة؟ قال: لأن العربيّة هي لغة المستقبل بلا ريب.(٢)

فعسى أن يكون هذا المؤتمر خطوة إلى الأمام نحو المستقبل العربي.

ويقول الله عز وجل في كتابه الكريم: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)(٣) ويقول الله عز وجل أيضاً: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ∃ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)(٤) صدق الله العظيم.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ص146.

(٢) ممدوح خسارة، قضايا لغوية معاصرة، ص103.

(٣) سورة فصلت: 44.

(٤) سورة النحل: 102-103.

التعليقات والمناقشات

- د. عبد الرحمن الهاشمي

أخذ على الدكتور عودة ضربه أمثلة، للحفاظ على اللغة، من الغرب وعدم التعريج على تاريخنا الزاخر بهذه الأمثلة التي يبدو فيها الحرص جلياً على سلامة اللغة، فيقول: مثال ذلك حين سئل الخليفة العربي الأموي عبدالملك بن مروان: علاك شيب يا أمير المؤمنين؟! فقال: شيبني ارتقاء المنابر خشية اللحن، رغم أنه من فصحاء العرب المعروفين.

ورأى أن السمع والأبصار والأفئدة وسائل تعلم للغة ولغيرها من المعارف، ولكن السمع هو الأساس في تعلمها؛ فالكفيف مثلاً يتعلم اللغة ولكن الأصم لا يتعلمها، وأن حب اللغة يتأتي من معلم محبّ لها، ويتساءل: ماذا فعلنا لهذا المعلم؟!

- د. حامد قنيبي/ جامعة الإسراء

قال إنه يمكننا فهم قضية من يصنع الآخر الأمة أم اللغة، بالعودة إلى تاريخ الأمة العربية الإسلامية وبنزول القرآن باللغة العربية ومخاطبته للأمم كافة، وكما تشير الدراسات الحديثة إلى أنه بعد ثلاثة أجيال يصبح المتعلم باللغة العربية عربياً وتسقط عنه صفة الجنسية الأصلية له، وأن بعض الأمم التي تخشى على حضارتها ووجودها تسجل إنجازاتها وتاريخها باللغة العربية؛ لأن العربية ستكون لغة المستقبل ولغة العالم في آخر الزمان كما يقال.

- م. حاتم البشتاوي/ نقابة المهندسين الأردنيين

تحدث عن وسائل التعلم ومصادره، وأورد في هذا المقام إحصائية تبين كمية المعلومات التي يتلقاها الطفل عن طريق حواسه المختلفة وقد جاءت كالآتي:

70% من هذه المعلومات تأتينا عن طريق البصر و 16% عن طريق السمع و12% عن طريق اللمس و2% من مصادر أخرى.

وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدل على أن الإنسان يحصل على جل المعرفة التي تربي الفكر والعقل عنده في فترة الطفولة المبكرة، ويبدأ الطفل بالتلقي عن طريق السمع في الأسبوع السادس عشر من عمره أي قبل ولادته؛ فالطفل يسمع صوت الماء الذي تشربه أمه أو القرآن الذي تقرؤه.. وهكذا، والسنوات العشر الأولى من عمره هي التي تتشكل فيها معرفته ووعيه؛ لذا فالاهتمام بهذه الفترة المبكرة من عمر الطفل غاية في الضرورة لتنمية اللغة والحفاظ عليها.

- رد الدكتور عودة أبو عودة

رد على الدكتور الهاشمي الذي أخذ عليه ضرب أمثلة من الغرب بقوله: لقد أوردت أمثلة كثيرة في البحث لأسيادنا من السلف الصالح، ولكني آثرت في العرض عدم ذكرها لأني لو بدأت بقولي: قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقال عمر، لقيل عني: هذا شيخ لغوي يريد أن يروج بضاعته بأقوال الناس، ولكن الأمثلة على ذلك لا حصر لها ومنها: قول النبي -صلى الله عليه وسلم- حين رأى رجلاً يلحن: "أرشدوا أخاكم فقد ضل"، والإمام الحسن حين شكي له أمام يلحن، قال: "أخروه".

كما رأى أن العربية لسان، وأن اللغة ملكة تكتسب بهذا اللسان؛ إذ يقول تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) فنزل به، أي بهذا اللسان. ويستشهد هنا بحادثة من زمن النبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ تناحر رجلان أحدهما سلمان الفارسي، فأغلظ الآخر القول على سلمان؛ فغضب، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "ليست العربية لأي منكم

من أب أو أم إنما هو اللسان"؛ ولذلك بعض الأعاجم فقهوا اللسان العربي وصاروا سادة الدنيا بمؤلفاتهم بالعربية أمثال: البخاري ومسلم وغيرهما.

اتفق الدكتور عودة مع الدكتور حمدان نصر الذي رأى أن الأسرة تلعب دوراً أساساً وكبيراً في لغة أبنائها وثقافتهم.

وأكد أهمية المعلومات الرقمية التي أوردها المهندس البشتاوي ويعدها مذهلة وموسوعية، ولكنه يرى أهمية دور السمع في التعلم وأنه يسبق بقية الحواس، وقد ورد في القرآن الكريم متقدّماً عليها، والواقع يثبت ذلك؛ فهناك ملايين المكفوفين الذين لا يبصرون ولكنهم يسمعون وصاروا شيئاً مذكوراً، ولكن ليس في الدنيا عشرات ممن لا يسمعون وعلا ذكرهم.